

من الأخلاق الكلاسيكية إلى الإيثيقا

From Classical moral to ethics

De la morale classique à l'éthique

توفيق بن ولهة^{*1}

تاريخ النشر: 2024/06/01

تاريخ القبول: 2022/11/13

تاريخ الإرسال: 2022/06/29

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى استقصاء علاقة الأخلاق الكلاسيكية بالإيثيقا في إطار التطور الكبير الذي عرفته التكنولوجيا، لأننا مدعوون اليوم في مختلف حقول المعرفة، بما فيها الفلسفة، إلى التفكير في الوضع الإنساني المربك أمام التطور الكبير الذي تشهده التقنية، هذا التطور الذي غيّر الكثير من المفاهيم والقيم. فبقدر رغبتنا في وجودها وتسهيلها لأمر حياتنا، بقدر خوفنا منها ومن النتائج التي ستأخذنا إليها. أما عن المنهجية المتبعة فقد تراوحت بين التحليل والتركيب، مطعمة بالمنهج المقارن قصد استخراج مكامن الفرق بين الحكم الأخلاقي والحكم الإيثيقي. لنصل إلى نتيجة بأن القيم الأخلاقية في صيغتها الكلاسيكية عجزت عن ضبط علاقتنا بهذا التطور، مما تحتم علينا إيجاد قيم متجاوزة، تمكننا من استيعاب كل وافد جديد، وهذا ما تحاول الإيثيقا في صورتها المتجددة الاضطلاع به.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق؛ الإيثيقا؛ الإنساني؛ التقنية

Abstract :

This article aims to investigate the relationship of classical moral with ethics in the context of the great development of technology. Today we are invited in various fields of knowledge, including philosophy, to think about the confusing human situation in front of the great development witnessed by technology, this development that changed many concepts and values. As much as we want it to exist and facilitate the affairs of our lives, the more we fear it and the consequences it will take us to. As for the methodology used which ranged between analysis and synthesis, leads to the comparative approach in order to extract the differences between moral judgment and ethical judgment. To come to the conclusion that moral values in their classical form were unable to control our relationship with this development, which necessitates us to find transcendent values, It enables us to absorb every newcomer, and this is what Ethics in its renewed form is trying to undertake.

Keywords: moral; ethics; humanity; technology;

Résumé :

L'objectif de cet article est d'étudier la relation entre la morale classique et l'éthique dans le contexte du grand développement de la technologie. Aujourd'hui, nous sommes invités dans divers domaines du savoir, dont la philosophie, à réfléchir à la situation humaine confuse face au grand développement qu'a connu la technologie, ce développement qui a changé bien des concepts et des

*المؤلف المراسل

¹ Toufik BENOUELHA, University of Setif2-Mohamed Lamine Debaghine, contemporary Algerian society laboratory: Algeri, toufik34200@gmail.com

valeurs. Autant nous voulons qu'il existe et facilite les affaires de notre vie, plus nous le craignons et les conséquences qu'il nous amènera. Quant à la méthodologie utilisée qui oscille entre analyse et synthèse, conduit à l'approche comparative afin d'extraire les différences entre jugement moral et jugement éthique. Arriver à la conclusion que les valeurs morales dans leur forme classique n'ont pas pu contrôler notre rapport à ce développement, qui nous oblige à trouver des valeurs transcendantes, Il nous permet d'absorber tout nouveau venu, et c'est ce que l'Éthique dans sa forme renouvelée tente d'entreprendre.

Mots clés : morale ; éthique ; humanité ; technologie.

مقدمة:

لقد شكل التدخل التقني في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، دهشة الأنساق الأخلاقية الكلاسيكية، وطرحت رهانات جديدة أمام الفيلسوف، جعلته يعيد التفكير في الكثير من المفاهيم التي تعتبر منطلقات كل حكم أخلاقي، كالذاتية والشخص والكرامة والحرية والحق والرغبة والاحترام والانسان... جعلت أي حكم يشير إليه يقف على أرض تمر معالمها، وتقاربت بذلك الأحكام بين المقبول وغير المقبول، والممكن واللاّمكن، والمسموح والمحظور، وما يجب وما لا يجب، لذا جذب هذا الانشغال الكثير من حقول الدراسة والمتجاورة في مجال الاشتغال، منها الطب والسياسة والعلم والدين والأنثروبولوجيا والقانون والبيولوجيا والفلسفة... فهي تحولات اجتماعية متصاعدة تقلصت فيها زمنية النموذج الأخلاقي شيئاً فشيئاً، واستبدل بنموذج إيتيقي يراعي كل حالة على حدا، وهذا ما جعل الفلسفة تعتقد في نفسها بأنها تملك القدرة على تأصيل رؤية كلية لطبيعة هذه القضايا، لأنها تصلح إطاراً نأمل فيه توافق الحياة الفردية مع الحياة الجماعية، أو تأسيس إيتيقا تشاركية، يسهم في تأسيسها الكثير من فروع المعرفة.

هذا ما جعل القيم المبنية على صورة الإنسان التقليدية تتغير، لتغير معها الكثير من المفاهيم الفلسفية المرتبطة بها، وفي خضم هذا التغير المتسارع أردنا في هذا المقال الكشف عن حقيقة الإنسانية المأزومة اليوم، والتي تحتاج من خلالها إلى مراجعة قيمها، فهل هناك مكان للأحكام الأخلاقية الكلاسيكية في هذه الأزمة أمام التطور التكنولوجي الهائل؟ وما هو البديل الذي نستطيع من خلاله فهم أنفسنا، وفهم العوالم التي حولنا دون الوقوع في فخ المشاكلة التي تدوب معها خصوصية الإنسان الفردية؟ وهل بإمكان الإيتيقا أن تسد هذا الفراغ الإيتيقي؟

1- الفلسفة كمجال لإشتغال المشكلة:

لقد كانت الفلسفة ولا زالت تعتقد في نفسها المالكة للقدرة على تأصيل رؤية كلية للطبيعة وللإنسان، بما أنها تصلح إطاراً نأمل أن تتوافق فيه الحياة الفردية مع الحياة الجماعية (Habermas, 2002, p. 10)، هذا ما حرص على تأكيده هابرماس (Habermas, 1929-) في كتابه "مستقبل الطبيعة البشرية"، وقد تغدو الفلسفة مجالاً يحقق فيه الإنسان توافقاً بينه وبين الطبيعة، أين يتكامل في فضاءها المجال القيمي مع المجال العلمي، إنشاءً لعقد طبيعي جديد يحوي فينا قيمة الإنساني، الذي ينظر إلى ظواهر الطبيعة كرفيقة لحياته وليس كخادمة ولا ندّاً له. (اعتبر الكثير من المفكرين والفلاسفة وعلى رأسهم ديكارت وبيكون أن الإنسان سيداً للطبيعة، بما يملكه من قدرات خاصة العقل)

ولما كان المجال التقني هو المجال الذي تنشط فيه حياتنا اليوم، وهو الذي مكّن الإنسان من تغيير الكثير مما كان يبدو طبيعياً، كان لزاماً علينا تحديد الممكن واللاّمكن في هذه الحياة، وذلك بالتأصيل لممارسات مسالمة مع الطبيعة، تجعلنا نتشبث بالحياة الحسنة والمجتمع السوي في بيئة مسالمة، لهذا احتجنا إلى نموذج إيتيقي مرن يضمن لنا هذا التعايش، بما أنه هو العقد الذي يحافظ به الإنسان على نفسه وعلى الوسط الذي يعيش فيه.

لكن التحولات الأخيرة التي شهدناها واقعنا اليوم جعلت النموذج الأخلاقي في صورته التقليدية يتقلص شيئاً فشيئاً (Habermas, 2002, pp. 10-11)، وغدا الإنسان بعدما كان أكثر الكائنات تطوراً، من أكثر الكائنات هشاشة، نظراً لتحوله إلى موضوع بحث وتجريب لدى الكثير من فروع العلوم، خاصة العلوم الطبية والبيولوجية، والتي فتت تركيبته، واستطاعت أن تعيد تشكيل الكثير من الأعضاء التي كانت لزمناً غير بعيد منبع الحياة ومكمنها، لدرجة خشي فيها على نفسه بفقدان وجوده.

من هنا أصبح الخطاب الفلسفي المجال الذي تُنشأ فيه هذه القضايا، وتنغرس فيه الكثير من المقولات العلمية والاجتماعية والنفسية والقانونية والانثروبولوجية والايثيقية... باعتبار أن أي علم يقع في أزمة سواء على مستوى المنهج أو المبادئ أو النتائج أو حتى الذات الدارسة يعود إلى الفلسفة، بما في ذلك الفكر الذي تنكر لغاياتها، لذلك فإن استعادة الفيلسوف لدوره في بناء المفاهيم ضرورة ملحة، لأنه لا يكفي فقط العمل على تراكم المعرفة، بل يجب العمل على تحديد مبادئها ومساراتها ثم مآلاتها، بما أنها تمس في اشتغالها طبيعة الإنسان، بمختلف أبعاده.

من هذه الحاجة جاءت الإيتيقا في صورتها الجديدة، لتملأ ذلك الفراغ القيمي الذي عرفته الأخلاق التقليدية (Sournia, 1996, p. 1011)، لذا قد يصعب اليوم تحديد الاختلاف بين مصطلح "الأخلاق" Moral

ومصطلح "إيتيقا" Ethique، رغم أن الاستعمال الثاني للمصطلح أصبح أكثر تداولاً، وذلك تعبيراً عن حالة من القلق والضيق في حصر مجال مصطلح الأخلاق، وقد يكون الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي فيليب زاريفيان Philippe Zarifian (1947-) من أكثر الذين عالجوا هذا الفرق، ذلك أن الأخلاق عبارة عن أحكام مصطنعة، لأنها تحدد العلاقات بين الفرد وباقي الأفراد في المجتمع وبين هذا الأخير وباقي المجتمعات، فهي تهدف إلى تحقيق النظام والأمن في السلوك البشري الاجتماعي.

هذا ربما ما جعل الكثير من الدراسات المعاصرة تدرج أغلب النظريات الكلاسيكية ومنها الكانطية، ضمن إطار علاقة الإنسان بالإنسان، أما الإيتيقا فهي تتجاوز هذه العلاقة، لأنها تهتم بعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته كذلك بالطبيعة التي يعيش فيها، أو ما يسمى بمبادئ الحياة (Hortolan, 2021, pp. 51-52)، ابتداءً من علاقته بجسده إلى علاقته بالكون، وبذلك تتجاوز الإيتيقا كل مفهوم اجتماعي في تحديد القيم.

لذلك فإن رهانات الفيلسوف اليوم أصبحت موجهة أكثر إلى مواضيع الإيتيقا، وذلك بالعودة إلى التفكير في تحديد المفاهيم المفعممة بالمعيارية، والتي قد نستأنفها من الذات والشخص والكرامة والحرية والرغبة والصحة والبيئة وغيرها من المفاهيم، التي تستمد صمغ تركيبها من مقولة الإنسان المعاصر وعلاقته بما يحيط به، وكذا مع ما بناه من علاقات متشعبة في هذا العالم، هذه المفاهيم التي قد تتناسل بشكل رهيب يصعب فيها على الفكر التمثلي إعادة تركيب شظاياه أمامها.

إن فقدان المفهوم هو فقدان للمعنى الذي تُعرّف به المعرفة ذاتها، أين حصر مفهوم الإنسان فقط فيما ينتجه من فكر أو فيما يقوم به من سلوك، حيث ولّد هذا الحصر الإقصائي الكثير من المآزق القيمية، والتي تشكلت بين برائن علوم طالما نظر إليها الإنسان على أنها المنقذ للحياة، والمعين في تجاوز مختلف الصعوبات التي تطرحها أمامه الطبيعة، بما فيها طبيعته البيولوجية، وهي الطب والبيولوجيا وما جاورهما من فروع، التي لا نكاد نحصي مواضيعها حتى تنبثق مواضيع أخرى، تغوص بنا في متاهات لا تحصى، حول عضوية هذا الكائن، والضامن المشترك بين هذه الحقول هو تعاملها مع الإنسان ككائن حي فقط، دون تقييم لفكره ولا لسلوكه.

2- معيار تحديد القيم:

لقد تعرضت الإنسانية عبر تاريخها إلى الكثير من الأزمات، جعلتها تراجع الكثير من المبادئ والقيم التي كانت تؤمن بها، لكن تبقى درجة تأثير هذه الأزمات واللحظات الحاسمة في تاريخ البشرية راجع إلى مدى تأثيرها على الحياة العامة للإنسان، وهنا مقولة الإنسان قد تأخذ معنا عدة أبعاد، بحسب المرجعية التي نتكلم عنه من خلالها، أين حصرت أبعاده

في الخطاب الكلاسيكي ضمن القيم التي يريدها له هذا الخطاب، فكانت الاستيمولوجيا ومن ورائها كل المعارف بما فيها العلوم تخاطب الإنسان كعقل، والنظم الأخلاقية بمختلف مشاربها تخاطب الإنسان كضمير، والنظريات الوجودية والوجدانية تخاطب الإنسان كشعور، لذلك جاءت قيم هذه الأبحاث محصورة في ثلاثة أقطاب كبرى هي الحقيقة والخير والجمال، ومن هنا اطمأنت البشرية إلى مفهوم الكمال المنحصر في هذه القيم، التي تسوق التفكير نحو الحقيقة، والفعل نحو الخير، والنفس نحو تحقيق الطمأنينة وراحة البال بتمتعها بقيم الجمال.

لكن هذه القيم كانت تعبر عن "أشواق الإنسان" إلى عالم مثالي كامل، تسمو فيه الروح وتترفع فيه عن كل الملذات المرتبطة بالجسد، لهذا نُظر إلى الجسد بنوع من الدونية مقارنة بالنفس وقيمها، فقبولت الحقيقة بظلال العالم المادي والخير بملذات الجسد وشهوته، والجمال بقبح صور المادة وبشاعة الجسد، حتى وإن بدا جميلاً.

لذلك جاء التأريخ لأغلب الأزمت التي عرفت الإنسانية مرتبط بـ هذه القيم الثلاثة، فكانت هناك أزمات أو صدمات للفكر في بحثه عن الحقيقة، وتاريخ الفلسفة والعلوم مليء بهذه اللحظات، وأزمات أخلاقية سجلتها لنا النظريات الأخلاقية، وأزمات في تغير قيم الجمال من خلال تغير مفهوم الجميل في تاريخ الفنون. قد يثير هذا التقسيم الثلاثي الكثير من ردود الفعل المعارضة، بما أن الإنسان أعقد من أن تحصره هذه القيم، فهو زيادة على أنه كائن مفكر وأخلاقي ومتذوق للجمال، هو كذلك كائن سياسي واقتصادي واجتماعي... هذا صحيح إلى حد ما، لكن الخطاب الكلاسيكي اقتصر في أغلبه على هذه القيم، وشيد من خلالها صورته للإنسان، التي لم تظهر فيه صورته الأولى أو قيمته الأولى وهي قيمة الحياة.

إن قيمة الإنسان الأولى هي كينونته الحية، بما أنه يملك جسد يؤدي به هذه الوظائف كلها، وإذا تعرض هذا الجسد للعطب وشلت حركته انهارت معه كل هذه القيم، بما أن الإنسان قبل أن يكون كائناً مفكراً أو كائناً أخلاقياً أو كائناً ذواً للجمال هو كائن بيولوجي، يقوم بعمله نتيجة التكامل الخلاق والمنسجم لأعضائه البيولوجية، بما أن مجموع وثائقه البيولوجية وسلامتها هي من تضمن له الانتقال من مرحلة إلى أخرى، إن هذا الجسد هو الذي به وجد ومن دونه يتوقف عن الوجود.

لقد ولد الإنسان جاهلاً بلا حقيقة، وشهوانياً بلا أخلاق، وقبيحاً بلا جمال، واستمر في الوجود، لكن إذا لم يتمكن من تحقيق التكامل في عمل أعضاء جسده فإن ذلك يهدد وجوده، حتى العمليات الإدراكية أو السلوكية يمكن ردها إلى تكامل عمل عضويته الفيزيولوجية، لأنه حين يتراءى المرض للمريض، يظهر له خسارته لذاته ولقيمه، ويعيش حالة من

الاغتراب وفقدان المعنى "بما أن فقدان المريض للاتصال بجسده، يبعث في داخله الكثير من الأحاسيس الجديدة والغير معتادة والمتغيرة، التي يصعب قبولها" (D.Oppenheim, 1996, p. 111)

وهنا تتدخل التكنولوجيا محاولة إنقاذ هذا الجسد الذي به يستطيع الإنسان الاستمرار في هذه الحياة، ولكن بفرض شروطها، بتدخلها ومساهمتها في بناء قيم جديدة على الإنسان الجديد الخضوع لها، حتى أنها أصبحت تساهم في بناء وتحديد الشخصية أو الهوية بتعبير بول ريكور P.Ricoeur (1913-2005) التي يكون عليها ذلك الشخص (P.Riceour, 1991, p. 252)، فكيف لشيء صنعه الإنسان أن يساهم في توجيهه وفرض شروطه عليه؟

2-1- التكنولوجيا كمساهم في صناعة القيم:

نشأت التكنولوجيا نتيجة تقاطع بين الفعل التقني والتفكير العلمي (Peter, p. 24) ولو أن المفكر الألماني شبنغلر O.Spengler (1889-1936م) يعترف بأن منشأ التقنية غير معروف، ولذا يميز بين التقنية لدى الحيوان، الذي يعمل بواسطتها على حفظ بقاءه واستمراره، بما أنه موجه بقوة غريزية تدعم استعماله لها، بينما التقنية عند الإنسان تكون عبارة عن خطة للحياة، تهدف إلى تجاوز المشكلات المطروحة أمامه بالتأمل في الحلول، وهي سيرورة إنسانية لم يوجد شعب خلا منها تقريباً (Spengler, 1958, p. 122).

سواء كان هذا الشعب بدائياً أو ظهرت لديه بعض معالم الحضارة، بل إن التقنية تبرز كشيء مشترك بين ما يقوم به الإنسان وما يقوم به الحيوان، لأن الحيوان بإمكانه أن يخلق لنا أشياء يعجز عن تقليدها أدق المهندسين، وهذا ناتج عن تطور مر به الحيوان منذ آلاف السنين، وقد لا يدخل على أكثر إنجازاته أي تغيير، خاصة إذا كانت تؤدي غرضها وهو المحافظة على النوع، بينما الإنسان يمكن أن يدخل على فعل التقنية نوع من التحسين والإبداع، ليصبح فعل التقنية مزود بمعرفة أو علم وبالتعبير اليوناني لوجوس، لتصبح الكلمة مركبة من شطرين: تقنية ولوجوس أو تكنولوجيا.

من هنا فإن التكنولوجيا ليست فقط وسيلة لتحقيق الفعل، الذي يصعب تحقيقه بأطراف الإنسان الطبيعية، بل هي ذكاء الطريقة في الأداء، أين يحقق بها الإنسان قدرته على العيش مع الأشياء، وكل إنتاج تكنولوجي يفتح مجال لولادة إنتاج تكنولوجي جديد، موسعاً من مجال تطبيق وسيطرة الإنتاج الأول، "أين أصبح لنا استعداد مسبق للإنتاج الأعمى لحاجات مختلفة، حتى ضاع المعنى وتشتت الرغبات، وأصبح الوجود مفككاً" (Testart, 1987, p. 359).

إن التقنية تتطور اليوم بشكل مهول، تشبه في تضخم حجمها كرة الثلج كلما زاد تقدمها كلما زاد حجمها واكتساحها لكل ما يعترض طريقها، فهي تفرق في طريق تطورها بين حياة الفرد وحياة الجماعة، لأنها سريعة التأقلم مع

الفعل الذي يحدثها، الأمر الذي يجعلها تتقدم ككائن مستقل بذاته، لأنها تحاول أن تتصل من الفعل الأول الذي بعثها، بتحقيق الاكتفاء الذاتي في أفعالها، دون الرجوع إلى الدفعة الأولى التي منحها الوجود، وحتى العطب الذي تتعرض له تسعى لأن تصلحه ذاتيا انطلاقا من إعادة برمجة نفسها بسلوك طرق جديدة في حل مختلف المشكلات التي تواجهها.

هذا النمط الذي سلكته التقنية في صورتها الذكية، جعلها تنفلت من أي تقييم أخلاقي، بما أنها استقلت عن الاتصال بأطراف الإنسان، وأصبحت تشكل كياناً بذاتها، مما يصعب وصفها بقيم أخلاقية تقليدية، مثل قيمتي الخير والشر، ولعل هذه الفكرة عبر عنها جيلبرت هوتوا (G.Hottois, 1946-2019) حينما قال: "لا يمكن أن نصف التكنولوجيا لا بالحسنة ولا بالسيئة، فالوسائل التكنولوجية مجردة، تتطور بمعزل عن الأخلاق وعن القيم الإنسانية" (G.Hottois, 1999, p. 111)، ويضيف في موضع آخر "لم تتوقف التقنية عن التطور والتعدد بل حتى دون برمجة مسبقة، لدرجة أنه لا أحد يستطيع تحديد أبعادها غداً" (G.Hottois, 1999, p. 122).

إن التكنولوجيا في تطورها لا تراعي ملائمتها أو عدم ملائمتها للقيم الأخلاقية السائدة في مجتمع ما بل تسعى إلى توفير الرفاهية والنجاة والحماية للإنسان، أي تلبية رغبة العظمة التي طالما راودت الوجود البشري، كما أشار إلى ذلك بيكون وديكارت "الإنسان سيد الطبيعة" أو "المعرفة قوة" (Bacon, 1620, p. 1).

وهذه الرغبة الجارحة في التقدم جعلت العلماء يرفعون شعار "كل ما هو ممكن نستطيع فعله، وكل ما نستطيع فعله يجب فعله" وبدأ هذا الشعار يعرف رواجاً في جميع المجالات، ويشمل جميع المخاطر، حتى التي تتعامل مباشرة مع الإنسان، وفي هذا يقول جوناس: "إن الثمن الحقيقي لتراكم المعرفة هو ضياع الأخلاق" (J.Hans, 1985, p. 223) وهنا وقعت الأزمة التي تعرفها الأخلاق المعاصرة، لأن جميع المبادئ الأخلاقية المتوفرة لم تستطع تقديم مواكبة للشيء الذي جدّ، وذلك لأنها لم تستطع إسعافنا في الأمور المتولدة عن الوضع الجديد، وهذا ما خلق فراغاً إيتيقياً.

2-2- الفراغ الإيتيقي وانخراط القيم:

في الثامن من شهر ديسمبر عام 2001، جمعت اليونسكو أكثر من 20 شخصية من فلاسفة ومفكرين وكتاب وفنانين للنظر في مستقبل القيم الأخلاقية السائدة، وأثيرت في هذا الملتقى مسألة "فقدان المعنى الأخلاقي بزوال القيم" أو ما يسمى بالفراغ الإيتيقي الذي تعيشه الإنسانية بعد الثورة التكنولوجية التي شهدتها الكثير من مجالات الحياة، وكان الغرض من هذا الملتقى وضع نموذج فولتير (Voltaire 1694-1778) في الأخلاق، الذي كان يسيطر على عصر الأنوار تحت طاولة التمهيد، بما أن النموذج الأخلاقي المنشود يدعو إلى الوحدة كما هي وحدة الهندسة في العلوم، فقد اعتبرت

الهندسة نموذج الصدق واليقين لباقي العلوم، التي كانت تريد تقليدها، كذلك بالنسبة للأفراد الذين يرغبون الكمال في سلوكه عليهم التأسى بنموذج الأخلاق الفاضلة.

لكن بعد الأزمة التي زعزعت القرن 20م، ومن بعده القرن 21م، قادت إلى أشكال عديدة من اللايقين، بداية من اللايقين الرياضي ثم الفيزيائي، ليمتد إلى باقي أشكال المعرفة والسلوك، حتى تشمل القيم الأخلاقية التي كان ينظر إلى الكثير منها بنوع من الثبات، مما جعل الإنسان المعاصر يضع فكرة "التقدم" بين قوسين، بل هناك من عكس وجودها، لأن الانسانية بفقدانها للمعنى تدهورت من جديد، ولم تعد هناك فكرة التقدم اليوم (Ellue, 1991, p. 101) بل أصبح الفعل الإنساني منقلباً، بما أنه لا توجد أي إمكانية لتطبيق الإيتيقا التقليدية في مجتمعاتنا الرأهنة، نظراً لعدم وجود إيتيقا أصلاً (Ellue, 1991, p. 19)

إنها وضعية حرجة فرضها، التقدم العلمي والتطور التكنولوجي، مما خلق هذا الفراغ الإيتيقي الكبير، حيث انبجست جملة من الأحكام والقيم الجديدة كنتيجة حتمية لاضمحلال الإيديولوجيات، وتراجع الأديان بمختلف تصنيفاتها، أين ضاع المعنى وتقلصت المبادئ الفلسفية والميتافيزيقية والاجتماعية... وحل محلها نموذج الفردانية، "وأصبح الفرد هو من يتبوأ القيمة القصوى في أي حكم" (R.Jacqueline, 1994, p. 3)

هذا النموذج أصبح يكيف الأحكام الإيتيقية بحسب الحالة التي يكون عليها الفرد، فلا يمكن أن تصدر أحكاماً مطلقة على كل الحالات، لذا يجب تكييف الحكم بحسب الظروف والحالات الفردانية في إطار ما يسمى بمعيارية البيوييتيقا.

2-3- من الفراغ إلى المعيارية:

هذا الفراغ الإيتيقي طرح تباين بين المجتمعات في معالجته، بما أن كل حضارة لها أسلوبها ورؤيتها إلى العالم، لذلك يجب أن تكون للبيوييتيقا معياريتها الخاصة، ومصطلح المعيارية Normative مصطلح معار من البيولوجيا، وهي خاصية تملكها المادة الحية تسعى من خلالها إلى تحقيق التكيف مع مختلف الأوساط التي تعيش فيها، فهي تسعى إلى تحقيق التأقلم مع عالمها المتغير، وكذلك حياة الناس وسلوكاتهم بما فيها الأخلاقية والعادية، فلا يمكن أن نتخذ لباساً واحداً في كل الفصول، كما لا يمكن أن نستعمل شريحة هاتف واحدة في كل البلدان، بل لكل بلد شريحته الخاصة، التي تمكننا من تحقيق التواصل مع الآخرين في ذلك المجتمع.

لذلك علينا أن نعكس تلك النظرة التقليدية للأخلاق، بأنها تكون أخلاقاً مطلقة وصحيحة إذا جمعت أكبر قدر من الأفراد، أي تسعى إلى تحقيق الكوني بلغة "كانط"، فالأخلاق أو بلغة أشمل "البيويثيكا" تختلف بحسب الشخص والموقف والوضع والمجتمع الذي يكون فيه الفرد، لذلك على الأخلاق أن تقبل الاختلاف لا أن تسعى إلى محوه والقضاء عليه من خلال توحيد الأحكام، لذلك فإن اتصاف البيويثيكا بالمعيارية، ضرورة لا بد منها لتجنب في عصرنا الحالي ما أدخلتنا إليه التطورات التكنولوجية أي عصر ما بعد الأخلاق الكلاسيكية أو ما بعد الحداثة أو ما بعد الإنسانية بلغة هابرماس وليوتار، وفلسفات الاختلاف وما بعد الاختلاف، إنه "عصر الخلاء" بلغة "ليوفتسكي" G.Lipovetsky (1944-).

إنّ الاختلاف قانون الطبيعة، والأخلاق عليها أن تساير هذا المبدأ فننتقل إلى ما بعد الأخلاق، أي إلى البيويثيكا بمختلف أبعادها وتفرعاتها، فلم تعد هناك قيم ثابتة، فكل القيم تتغير بحسب تغير السوق الواسعة، أين لا يمكن نعت حق ما أو واجب ما بالثبات، لأنها أصبحت مؤشرات خاضعة للأهواء والمخاوف، وحسب الظروف والشخص، فتتغير القيمة وحكمها بتغير الشخص.

ولو أردنا أن نتكلم بلغة الرياضيات، نقول بأن الأخلاق اليوم شبيهة بالأكسيوماتيك، كل مجتمع يخضع لأكسيوماتيك خاص به، وتكون الأخلاق ناجحة إذا احترمت الفرد تلك المبادئ التي سلم بصحتها منذ البداية، وسيقع أكيد في التناقض إذا خرج عن نسق المبادئ التي اعتبرها كمنطلقات يحتكم إليها سلوكه منذ البداية.

إن رهانات البحث في مجال البيويثيكا من منطلقات فلسفية قد لا يتأتى من موقع المتخصص في مراجعة تاريخ هذا العلم وطرق تطوير أبحاثه، وإنما هي دعوة إلى تأصيل رؤية إيثيقية لطبيعة هذه الأبحاث واستتبعاتها التطبيقية على الإنسان وعلى الطبيعة، وذلك لأن معايير الإيثيكا التقليدية لم تعد ذات صلاحية مطلقة، كما أن الواقع المعيش اليوم بكل تركيباته المعقدة لم يعد يقبل أن تستوعبه أحكام قيمية بسيطة، لقد أصبحت هذه الأحكام الأخلاقية المتوفرة اليوم غريبة عن متطلبات الإنسان المعاصر، الذي تشهد حياته تمدداً في جميع الاتجاهات، ذلك أن الحواس لم يعد مجال تناولها للمواضيع يقتصر على مدى قدرتها البيولوجية في استيعاب الموضوع، بل أصبحت حدودها غير معروفة المعالم بفضل التقنية التي زادت من قدرتها ووسعت من مجال استيعابها، لدرجة أن العقل اليوم لم يعد يستطيع مجارات ما تأتي به الحواس من معلومات متسارعة ومستجدة في كل لحظة.

لذلك أخذت الفلسفة على عاتقها خلق نموذج إيثيقي معاصر يساير تلك التطورات البيوتكنولوجية والطبية من أجل إرجاع ذلك التوازن المفقود بين المستجدات المعرفية والقيم الإيثيقية، ومن هنا يصبح للإيثيكا مجالاتها العينية التي تتحدث عنها، من خلال حالات تشهدها المؤسسات الاستشفائية المختلفة، وتعيش مع الفرد معاناته وتسمع آهاته، لتتمكن من

تحديد قيم نابعة من واقعه المعيش، لتتشكل بذلك ما يسمى "بالإيتيكا التطبيقية" التي ترافق الإنسان الفرد، وتساهم في توجيه الأبحاث البيوطبية نحو غايات تخدم مبتغى الدولة التي هدفها خدمة مواطنيها والسهر على راحتهم.

من هذا المنطلق نندخل في معالجتنا لهذه القضايا مع ممارسات مهنية وعادات اجتماعية وقوانين ومبادئ دينية... لنخرج في الأخير باقتراحات وحلول معيارية تساهم في تطوير قطاعاتنا الاستشفائية.

إن علاقة المريض بالوسط الذي يعيش فيه، عرفت عبر تاريخها عدة تجاذبات، إلى حد وصلت فيه بعض المجتمعات درجة العزل والإقصاء لهذه الفئة، ورفض المجتمع خاصة الغربي في القرون الوسطى العيش مع المريض في وسط واحد، واعتبر المرضى مظهر مشوه لجمال المدينة وعقلانياتها، أين عوملوا كمجرمين وقتلة يجب الزج بهم في المشافي المعزولة أو حتى السجون وإخضاعهم إلى شتى أنواع العذاب.

هذا الإقصاء ورفض العيش المشترك مع المريض ناتج عن خلفيات إيديولوجية قبل أن تكون أحكام طبية تتسم بالموضوعية، فقد بنيت هذه الأحكام انطلاقاً من تحديد الذاتية البيولوجية أو العضوية في إطارها الاجتماعي، لأنه متى استندنا إلى هذه المعايير المصطنعة، فإننا نعمل على تغليف حقيقة الكائن الإنساني، الذي تحكمه شروط مغايرة لتلك الشروط التي تحكم الذاتية الاجتماعية، والمرض له معايير البيولوجية التي نخطأ إن أدخلناه في منظومة معايير مختلفة، فربط الطاعون والحمى الصفراء والجنون والشدوذ.... بقيم أخلاقية وضعية يفقدها ميزتها البيولوجية، ويجعلنا نقصي المصابين بها، لذا علينا أن نتجاوز تلك الأخلاق الصماء بأخلاق متحركة تتأقلم مع مختلف التغيرات الحاصلة على الإنسان، بما أن الطبيعة البيولوجية للإنسان تتغير معياريتها فكذلك هو الشأن بالنسبة إلى سلوكه الذي عليه أن يؤقلمه بحسب الوضع الذي يوجد فيه.

خاتمة:

إن ما يمكن أن نخلص إليه هو أن الأخلاق الكلاسيكية تجاوزتها الكثير من الفتوحات الغير متوقعة في مجال العلم، لذلك على العقل أن يتخلص من دوغماتيه التي تشرىها لقرون من تيارات كلاسيكية، طالما اعتبرت الخير والشر شيان متقابلان يمكن وضعهما على طرفي المعادلة الأخلاقية إذا اتصفنا بالفضيلة، فالقول بأخلاق ثابتة في تمييزها للخير والشر هو قول بثبات الإنسان الذي وضع هذه القيم وعليه تنطبق، ولكن الواقع المعاش يكشف التطور الكبير الذي عرفته أوضاع الإنسان، هذه الأوضاع جعلت من الأخلاق في صورتها الكلاسيكية تدخل الإنعاش إن لم نقل بأنها لفظت

أنفاسها أمام اليومي والمعيش، الذي تتناسل فيه القضايا المستجدة تبعاً، وكأنها تطرح على كائن جديد، يختلف بمواصفاته عن الكائن الإنساني الكلاسيكي الذي ضبط مفهومه في التفكير.

نحن اليوم نتكلم عن ما بعد الإنسان أو الإنسانية المتجاوزة Transhumanism التي تحتاج إلى إتيقا جديدة تتفاعل مع قضاياها، تكون إتيقا متحولة، منفتحة عن الحالات الطارئة والشاذة، تتقبل الموقف والنقيض دون أن يكون لها ميل لأحد طرفي المعادلة، غير مرتبطة بمبدأ يكبل حرية تحركها في مساحة الإنساني، دون أن تفصل نفسها عن سلوكه ومظهره والمآلات التي ينتهي إليها، متجاوزة كذلك تلك الثنائيات التي طالما ربطت مع بعضها البعض، كالحق والواجب، والأسرة والإنجاب، المرض والعلاج...

لقد تغير مفهوم الأخلاق الموجهة للإنسان ذو البعد الأحادي، وأصبحنا نبحث عن إتيقا تغطي جميع أبعاد الإنسان، وترافق تمدده، سواء على المستوى الفردي من خلال التحكم في جسده، وكذلك على المستوى الجماعي، خاصة بعد تداخل عمل مؤسسات المجتمع في صياغة نموذج الإنسان المعاصر، كالمؤسسات التجارية والاستثمارية والإعلامية والسياسية والإستشفائية...

قائمة المراجع:

- 1-Bacon, F. (1620). *Novum organum*. Paris: E. Burnouf classique.
- 2-D.Oppenheim. (1996). *L'enfant et le cancer*,. Bayarid: éditions Bayarid.
- 3-Ellue, J. (1991). *Le temps de la responsabilité*. Paris: édition Fayaard.
- 4-G.Hottois, , 1. (1999). *Essais de philosophie bioéthique et biopolitique*. J .Vrin: Librairie philosophique.
- 5-Habermas. (2002). *L'avenir de la nature humaine*. Paris: ed Galimard.
- 6-Hortolan, Y. B. (2021, 03 20). Récupéré sur Entre morale et éthique : apprendre ensemble à choisir ensembl: <https://www.erudit.org/fr/revues/ef/2009-v37-n2-ef3580/038815ar.pdf>
- 7-J.Hans. (1985). *Le principe responsabilité*. Paris: Ed cref.
- 8-P.Riceour. (1991). *Le temps de la responsabilité*. Paris: Fayerd.
- 9-Peter, K. (s.d.). *L'irremplaçable*. Paris: édition C .E.R.F.
- 10-R.Jacqueline. (1994). *La pence contemporaine*,. Paris : édition P.U .F.
- 11-Sournia, J.-c. (1996). , Ethique médicale :Origine , histoire, développements récent. Dans M. Conto-Sperber, *Dictionnaire d'éthique et de philosophie morale* (p. 1011). P .U.F.
- 12-Spengler, O. (1958). *L'homme et la technique, Idées*. Paris: Gallimard.
- 13-Testart, J. (1987). Les mort de genre humain. *Revue de métaphysique et de morale*, 3, 359-375.